

الأبعاد التداولية والنصية في التجربة النقدية لـ "عبد الحميد بورايو"

The Pragmatic and Textual Dimensions in the Critical Experience of "Abdul Hamid Bourayo"

محمد أمين مولود *

المركز الجامعي عبد الله مرسل - تيبازة - (الجزائر)، mouloudj.mohamed@cu-tipaza.dz

تاريخ الارسال: 2023-01-28 تاريخ القبول: 2023-03-05 تاريخ النشر: 2023/03/20

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة واحدة من التجارب النقدية التي فرضت نفسها على الساحة النقدية الجزائرية المعاصرة، والمتمثلة في أعمال الناقد الأستاذ "عبد الحميد بورايو". من خلال تسليط الضوء على أهم الأسس والمرجعيات التي كونت ملامح التجربة النقدية عند الناقد وساهمت في بروزها وإثرائها. كما يحاول هذا البحث من ناحية أخرى الكشف عن مدى حضور مقولات الدرس التداولي والنصّي في ثنايا هذه التجربة النقدية الرائدة، ومناقشتها وتقييمها في ضوء مستجدات هذه النظريات اللسانية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد بورايو، النقد الجزائري، التداولية، النصية، التجربة النقدية

Abstract:

This research seeks to study one of the critical experiences that imposed themselves on the contemporary Algerian monetary scene, which is represented in the works of the critic Professor "Abd El Hamid Bourayo". By highlighting the most important foundations and references that formed the features of the critic's critical experience and contributed to its emergence and enrichment. On the other hand, this research attempts to reveal the extent of the presence of the deliberative and textual lesson categories within this pioneering critical experiment, and to discuss and evaluate them in the light of the developments of these modern linguistic theories.

Keywords: Abdel Hamid Borayo, Algerian criticism, Pragmatics, textual, critical experience.

1. مقدمة:

شهد مسار النقد العربي المعاصر تحولات كثيرة، تختلف من حيث منطلقاتها ومناهجها ومن حيث رؤيتها؛ وحتى من حيث إجراءاتها النقدية، وقد أثار هذا الأمر بلا شك على مسار النقد الأدبي الجزائري؛ حيث يعرف اليوم توجهاً كبيراً لاعتماد وتبني المناهج الجديدة في مقارنة النصوص الإبداعية. ومن المعلوم أن النقد الأدبي

الجزائري المعاصر بدأ بدايات متعثرة؛ رغم أنه كان لها تأثيرها الإيجابي على تطور مسار الخطاب النقدي فيما بعد، ولعل من أبرز تلك العثرات عدم تبني منهج معين في كلياته ومرجعياته الفلسفية والإبستمولوجية وضيق مجال التمثيل، بالإضافة إلى عدم مراعاة خصوصية النص المحلي، وسوء استخدام وتوجيه بعض المفاهيم الأساسية، ومن جهة أخرى عدم مراعاة خصوصية النظرية أو المنهج المعتمد...، غير أن هذا لا يعني ألبتة التقليل من أهمية ما حققه الخطاب النقدي الأدبي في الجزائر.

يبرز الناقد الجزائري عبد الحميد بورايو كواحد من ألمع هؤلاء النقاد الذين ساهموا في تصحيح مسار النقد الأدبي الجزائري المعاصر، وإعادة توجيهه وهيكلته، فقد ذاع صيته من خلال الجهود النظرية والتطبيقية التي قدمها للنقد الجزائري وحتى العربي. وفي هذا الإطار يأتي هذا البحث لتسليط الضوء على جانب من تلك الجهود من خلال معالجة إشكالية مفادها: ما هي أهم قضايا لسانيات النص والتداولية التي برزت من خلال التجربة النقدية للأستاذ عبد الحميد بورايو؟

ومن هذا المنطلق يهدف البحث إلى عرض أهم أسس ومرجعيات التجربة النقدية عند بورايو واستقراء مدى حضور مقولات الدرس التداولي والنصي في أعماله النقدية.

2. التجربة النقدية عند عبد الحميد بورايو: الأسس والمرجعيات

إن الحديث عن التجربة النقدية عند الناقد الجزائري عبد الحميد بورايو يحتم علينا الإشارة إلى إشكاليات الممارسة النقدية بمختلف مناهجها؛ خاصة أن "سؤال المنهج في سياقنا الثقافي الراهن... لا يزال مفتوحا ومطروحا، لم يستفرغ حمولته، ولم ينته إلى قرار"¹، وهذا راجع إلى تبني هذه المناهج النقدية الغربية دون وعي، و"إهمال الخلفية المعرفية (الإبستمولوجية) التي تقف وراءها بدعوى أنها مجرد إجراءات مستقلة عن الفضاء الفكري الذي نشأت فيه"²، غير الاتجاهات النقدية في حقيقتها هي - كما لا يخفى منظومة متكاملة ومنسجمة تندخل في تكوينها العديد من الأسس والمفاهيم؛ منها ما يتعلق بالمرجعيات والظروف الثقافية والاجتماعية التي نشأت في أحضانها، والمبادئ التي تقوم عليها، ومنا ما يتعلق بكيفيات تطبيق آلياتها الإجرائية.

وهذا يعني أن على الناقد الذي يتصدى لنقد الأعمال الإبداعية الأدبية من خلال تلك المناهج؛ أن يأخذ بعين الاعتبار أمرين:

1- أصولها المعرفية: أي الخلفيات والمنطلقات النظرية والفلسفية التي يستمد منها الاتجاه النقدي مفاهيمه؛ إذ إنّ أية محاولة لفهم هذه المناهج وآلياتها "يجب أن تكون قائمة على وعي مسبق بالخلفيات الفلسفية والإيديولوجية وبالمناخ الثقافي والتاريخي، والترتبة التي نشأت فيها"³.

2- الآليات الإجرائية: إذ لا بد للاتجاه النقدي أن يقوم على آليات إجرائية؛ لممارسة فعاليته على النصوص الأدبية؛ حين يقوم الناقد باختبار مدى توافق هذه الآليات مع مرجعياتها النظرية لأن "الممارسة النقدية لا تحلق منطلقة إلى ذرى الإبداع إلا بجناحي التنظير والتطبيق والمراوحة الفعالة بينهما"⁴.

1.2 . أسس التجربة النقدية عند عبد الحميد بورايو:

ازدهر النقد الأدبي في الجزائر بعد الاستقلال؛ حيث اتّسم بالمنهجية، ونعني بذلك اعتماده على المناهج النقدية السائدة وبداية تبنيها، وتطبيقها على الإنتاج الأدبي الجزائري، ومحاولة تفسير قضاياها؛ ممّا ساهم في تأسيس حركة نقدية قادرة على مساندة التجارب الإبداعية الجديدة.

وقد حقّقت المناهج السياقية (المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي) حضورها بقوة في الساحة النقدية الجزائرية؛ من خلال أعمال كل من: أبي القاسم سعد الله، عبد الملك مرتاض، عبد الله الركيبي، محمد مصايف، واسيني لعرج، عبد القادر فيدوح...، وغيرهم⁵.

المرحلة الثانية سيطر عليها النقد النسقي وتميز فيها الخطاب النقدي الجزائري بتعدد مشاريعه واختلاف اتجاهاته، مما ساهم في عمقه وتطوره وإغناء كثير من جوانبه، نتيجة الانفتاح الثقافي على الغرب عن طريق الترجمة، وقد قاد هذه المرحلة أمثال "عبد الملك مرتاض" و"عبد الحميد بورايو"؛ بما تبناه هذا الأخير من ثورة على المناهج التقليدية التي ظلت أسيرة السياق في رؤيتها للأعمال الأدبية مما جعلها تُعنى بالمؤلف وعصره على حساب أدبية النص، وهذا ما أشار "عبد الحميد بورايو" بقوله: "يجب أن نعيد النظر في تلك الدراسات التي استمدت بحثها من علم النفس ومن التاريخ ومن علم الجمال"⁶.

وهكذا، أخذ المشهد النقدي في الجزائر بالتفاعل مع المناهج النقدية المعاصرة، ما ساهم في صياغة رؤية نقدية جديدة، ترى أن النص عالم خاص، له أنظمتها الخاصة به التي ينطلق منها الناقد، سعياً إلى مساءلته واستنطاقه بالتحليل والتفكيك لسبر بنية هذا النظام، من خلال التركيز على النص بوصفه بنية لغوية مغلقة نظامها الداخلي هو المرجعية الوحيدة بالنسبة للناقد.

ويبدو من الوهلة الأولى أن الناقد عبد الحميد بورايو كان على وعي بضرورة الاعتماد على التأصيل النظري والاستفادة من الأعمال النقدية المترجمة، ومزج ذلك بالممارسة التطبيقية المنهجية، إضافة إلى إدراكه عدم جدوى ضرورة الإسقاط المباشر لآليات المناهج الغربية على النص العربي دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية الفنية والمرجعية المميزة له، ويتجلى ذلك من خلال تعدد مستويات الخطاب النقدي عنده، وكذا طروحاته، ومقارباته الدقيقة التي تراعي سلطة النص، وتبتعد عن التطبيق التعسفي لتلك المناهج.

تتبلور التجربة النقدية للأستاذ الناقد عبد الحميد بورايو من خلال تنوع منجزه النقدي الأكاديمي وثرائه؛ بدءاً بـ: "القصص الشعبي في منطقة بسكرة" سنة 1978، الذي يعدّ باكورة أعماله النقدية، والذي تميّز بتطبيق الآليات الإجرائية النصية في معالجة نصوص القصص الشعبي، من خلال مزجه بين آليات عدة مناهج في آن واحد: المنهج الشكلي والبنوي، والبنوي التكويني، والبنوي الأنثروبولوجي، والسيميائي السرد.

استمر المنجز النقدي لعبد الحميد بورايو في التراكم والتطور، من خلال مجموعة من المؤلفات منها:

- الحكايات الخرافية للمغرب العربي: دراسة تحليلية في معنى المعنى.

- منطق السرد: دراسات في القصة الجزائرية الحديثة.

- البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري.
 - التحليل السيميائي للخطاب السردى: دراسة لحكايات من ألف ليلة وليلة وكليلا ودمنة.
 - المسار السردى وتنظيم المحتوى: دراسة سيميائية لنماذج من حكايات ألف ليلة وليلة.
 - الأدب الشعبي الجزائري: دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر.
 - البعد الاجتماعي والنفسى في الأدب الشعبي الجزائري.
- إضافة إلى العديد من الترجمات والمساهمات في إنشاء المجالات وعقد الملتقيات. لقد ترجم بورايو لكل من: غريماص، جوزيف كورتيس، فرنسوا راستي، دانيال باط، جاب لينتيفيلت، جوزيب كومبروي، استيفان بانو، برونو بتلهام، إدغار ويير ملتسكي... وقد كانت حصيلة ذلك الجهد الترجمي جملة من المؤلفات تمثلت فيما يأتي:
- مدخل إلى السيميولوجيا (نص/ صورة)، دليلا مرسلتي وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
 - الرواية، مدخل إلى المناهج والتقنيات المعاصرة للتحليل الأدبي، برنار فاليت، دار الحكمة، الجزائر، 2002.
 - الكشف عن المعنى في النص السردى (ثلاثة أجزاء)، غريماص، كورتيس باط، دار السهل، الجزائر، 2008.
 - مدخل إلى التناص، نتالي بيبقي-غروس، دار نينوى، دمشق، سوريا.
 - السيميائيات السردية، نموذج سردية الأشكال السردية، وظائف العنوان ج. لينتيفيلت، ج. كورتيس، ج. كومبروي، دار التنوير، الجزائر، 2013.
 - النظرية السيميائية، مسار التوليد الدلالي، غريماص، كورتيس، راستس باط، دار التنوير، الجزائر، 2013.
 - السرديات التطبيقية، مقاربات سيميائية سردية، مجموعة كتاب، دار التنوير، الجزائر، 2013.
 - المنهج السيميائي، الخلفيات النظرية وآليات التطبيق، دار التنوير، الجزائر، 2014. - أنثروبولوجيا العولمة، مارك أبيليس، دار نينوى، دمشق، سوريا، 2017.
- وقد ساهمت في مجموعها في تأسيس "المنهج الحدائي" وآلياته وجهازه المصطلحي، وهو ما ساعده في تحديث الخطاب النقدي، وتحديث الدراسة الأدبية، لكي تتميز عن الدراسات السياقية الانطباعية.
- ومن هذا المنطلق فإن مشروع الناقد بورايو يراهن على المنهج وفق أسسها⁷:
- 1- إحداث قطيعة إستيمولوجية مع الدراسات الانطباعية والسياقية الخالصة والتي يرى أنها تتنافى أو لا تساير مستجدات الحقول المعرفية المعاصرة -على الأقل- كاللسانيات والسيميائيات والأنثروبولوجيا...، وقد بدا طرحه هذا واضحا في معرض تقديمه لكتاب "البنية السردية في النظرية السيميائية لصاحبه رشيد بن مالك"، حيث رأى أن نقلة نوعية تلوح بأفق الخطاب النقدي الجزائري بفضل جهوده وجهود حاملي لولاء التجديد النقدي، ومؤلفاتهم التي "سوف يكون لها عميق الأثر في تطوير البحث الأدبي ونشر الوعي العلمي بأهميته وآلياته، وربط جسوره بمختلف مستوياته ومناهجه في البلاد العربية وفي العالم، لعلنا بذلك نستطيع أن نحقق ما نصبو إليه من

إحداث قطيعة مع التّعاملات الانطباعية الاختزالية والتبسيطية للآثار الأدبية، والتي مازالت تستلهمها كثير من الرسائل الجامعية والكتابات والأبحاث ودروس تحليل النصّ الأدبي⁸.

2- إحداث نقلة نوعية في التّعامل مع المسرودات خاصة التّراثية والشّعبية، وذلك في إطار المسعى الحدائي، وفي إطار علمنة الدراسة الأدبية، وهو ما يسهم في فهم تلك المسرودات الضاربة في عمق الذاكرة الجماعية بعين معاصرة من جهة ويسهم كذلك في فتح أفق واسع لتطوير الدراسات الشّعبية العربية، وهذا ما عبر عنه النّاقّد بقوله: "إنّ معالجتنا لمواد الحكايات الشّعبية تسعى إلى تجسيد ثراء طرق تحليل الخطاب الأدبي الشّعبي عن طريق تقديم معالجات متنوعة، الغرض منها توضيح المفاهيم وتأصيلها، وتهيئة الظروف التي تسمح بتراكم العمل التّطبيقي والمنهجي، من أجل تحقيق مشروع معرفي يسهم في تحقيق حداثة الدراسات الشّعبية العربية باعتبارها حلقة هامة من حلقات الثّقافة العربية"⁹.

2.2 مرجعيات التجربة النقدية عند عبد الحميد بورايو

إنّ أية عملية فهم للمناهج النقدية وآلياتها "يجب أن تكون قائمة على وعي مسبق بالخلفيات الفلسفية والإيديولوجية وبالمناخ الثقافي والتاريخي والترتبة التي نشأت فيها"¹⁰، وذلك "درءاً للمزالق التي تقع فيها عادة التناولات النقدية"¹¹ -على حدّ تعبير "عبد الحميد بورايو"-؛ لأنّ الإحاطة بالمرجعيات والأسس المعرفية للمناهج النقدية، وعرض أسسها التي قامت عليها، ومحاولة "الإحاطة بما جد في مجال التعامل مع النصوص الأدبية في الحقبة الحالية من التاريخ؛ لأنه لا يمكن دراسة النصوص الأدبية وتجاهل تطورات نظريات تحليلها"¹². فإنّ ذلك من شأنه أن يفوت على الناقّد الكشف عن جوانب عدة من النصّ الأدبي، أو على الأقل يجعل وظيفة الناقّد من الصعوبة بمكان.

لقد كان الناقّد "عبد الحميد بورايو" واعياً -كما أسلفنا- بضرورة الاعتماد على التّأصيل التّطري والاستفادة من الأعمال النقدية المترجمة، ومزج ذلك بالممارسة التّطبيقية المنهجية، لذا كان يحرص على "تجاوز التطبيقات الميكانيكية التي تعتمد على أدنى جهد تأصيلي"، ممّا يدلّ على وعيه التام، وإدراكه الواضح لعدم جدوى الإسقاط المباشر -الميكانيكي على حدّ تعبيره- لآليات المناهج الغربية على النصّ العربي دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية الفنية والمرجعية المميزة له.

وسيحاول البحث تقدّم مسح وصفي مجمل لأهم المرجعيات التي استقى منها "بورايو" تجربته النقدية، والمشارب المختلفة المؤسسة لمفاهيمه وآلياته الإجرائية، والتي يمكن تلخيصها كالآتي¹³:

- التحليل البنوي الوظائف لفلاديمير بروب: شكل المنهج "البروي" قاعدة أساسية استند إليها "بورايو". ففي تحليله للحكايات الشّعبية -ولد المتروكة نموذجاً- اعتمد على عملية تصنيف الوظائف، التي استمدّها من "بروب"، إلا أنه قام بشيء من التعديلات عليها؛ وفي هذا يقول: "راعينا في توزيع وحداتها عدم الاكتفاء بمراعاة ما يتعلق بوجهة نظر البطل، وحده مثلما فعل "بروب"، بل وضعنا في اعتبارنا وجهات النظر المتعلقة بالشخص

الأخرى المشاركة في الحدث؛ ذلك أن وظيفة الفعل لا يمكن أن تتحدد إلا من خلال ارتباطها بهيئة أحد الأشخاص أو مبادرة صادرة عنه"¹⁴.

- البنيوية الأنثروبولوجية لـ "كلود ليفي شتراوس": شكلت مقولات "ليفى شتراوس" الدعامة الأولى للدراسات السردية عند "عبد الحميد بورايو"، إضافة إلى أفكار "بروب"، فقد استعان أيضا بآليات البنيوية الأنثروبولوجية لدراسة البناء الاجتماعي في الحكاية والذي تمثل في العلاقات العائلية وطبيعة القواعد التي تتحكم في سلوكات أعضاء الأسرة، انطلاقا من نظام القرابة"¹⁵.

- البنيوية التكوينية "لوسيان غولدمان": شكلت البنيوية التكوينية إحدى الدعائم التي استند عليها الناقد "عبد الحميد بورايو" كفكرة عامة أساسها الانطلاق من البنية الشكلية لمعرفة الواقع، وهو ما صرح به بأنه: "كشف عن البنية التركيبية لنموذج من كل نمط قصصي، وبين علاقة هذه البنية بالبنية الأم التي تولدت عنها وهي البنية الاجتماعية"¹⁶، مستخدما المفاهيم الإجرائية للبنيوية التكوينية مثل: الشرح، البنية الأكبر، رؤية العالم، البنية الدالة...، ويقدم مفهومه الخاص لهذه الآليات؛ فيقول: "نعني بشرح النص إدماج الدالة في بنية أكبر منها تلقي الضوء على كيفية تولد هذه البنية الدالة، ويعنى هذا الشرح بالواقع الخارجي، متجاوزا بذلك النص الخاضع للتحليل عن طريق البحث عن أبنية مشابهة تتواجد في وعي جمهور القصص بالواقع الخارجي الذي يحيط فيه، وهو ما سيمكننا من الكشف عن رؤية الجماعة الشعبية التي صدر عنها النص للعالم الذي تعيش فيه"¹⁷.

- السيميائية السردية لـ "جوليان غريماس": استندت تطبيقات "عبد الحميد بورايو" السيميائية إلى الأسس التي وضعها "غريماس" لدراسة النصوص السردية، لأنه كان يمثل نموذجا للباحث العلماني الذي كرس حياته لوضع آليات التحليل السيميائي؛ إذ وضع جملة من القواعد والمفاهيم التي تسهم في تحليل النصوص السردية، باعتبارها نظاما دلاليا. اعتمد "بورايو" في تحليله لحكاية "الحمامة المطوقة" على مقولات السيميائية السردية، إذ قام بتقطيع النص القصة إلى ثلاثة مقاطع، ثم ذهب إلى دراسة البرنامج السردى لكل مقطع، والمقصود بالبرنامج السردى تعاقب الحالات والتحويلات التي تقوم على أساس علاقة الذات بالموضوع، وذلك مع ذكر تحولاتها المختلفة"¹⁸.

3 المباحث التداولية والنصية في تجربة "بورايو" النقدية

1.3 من قضايا التداولية في التجربة النقدية لـ "بورايو":

من القضايا التداولية التي أغنت التجربة النقدية عند الناقد "عبد الحميد بورايو" ما تناوله عند تحليله لخطاب الأدب الشعبي حيث رأى أنه يحمل بعدا تداوليا؛ باعتباره مؤسسة لها طقوسها التلفظية -على حدّ تعبيره-، ولما كانت التداولية تعنى بدراسة اللغة عند استعمالها؛ أي في وضعية التواصل، وذلك من خلال الاهتمام بثلاثة معطيات لها دور فعال في توجيه التبادل الكلامي وهي:

- المتكلمين (المخاطب والمخاطب)؛

-السياق (الحال/المقام)؛

- الاستعمالات العادية للكلام (أي الاستعمال العفوي للكلام)¹⁹.

وذلك بهدف الوصول إلى المعنى كما يريد أن يوصله المخاطب إلى المخاطب، فهي مرتبطة إذن بتحليل ما يعنيه المتكلمون بألفاظهم بغض النظر عن الملفوظ (الكلمات أو العبارات) في حد ذاته، وهي تستعمل جميع أدوات اللغة المتداولة في الكشف عن معاني النصوص. ومن هذا المنطلق، حاول "بورايو" النظر إلى خطاب الأدب الشعبي من منظور المفاهيم التداولية، وذلك من خلال تحليل النصوص الأدبية (المنطوقة والمكتوبة)، وخاصة الأمثال الشعبية والحكايات، ووصف وظائف اللغة وخصائصها أثناء عملية التواصل بشكل عام، مما يجعلها ذات صبغة تنفيذية عملية.

ومن التطبيقات التداولية التي أثارها "بورايو" ما تمثله الأشكال المختلفة للتلفظ، "ف عند الأداء تأخذ الأمثال والألغاز والحكايات معناها الخاص والمميز، فالتلفظ يترك دائما بصماته الواضحة على الملفوظ، سواء في تحديد شكله أو توجيه معناه"²⁰.

يقدم "بورايو" التوزيع الذي أتى به "أندريه يولس" و "هنريك بيكر" والذي يبين بوضوح مدى الاعتماد على البعد التداولي في تقسيم أشكال التعبير الأدبي الشعبي من حيث أنها أفعال في القول؛ حيث يتم إظهار كيفية فهم الكلام في اللحظة التي يقال فيها.

الطلب	الأمر	الصمت	الإثبات	الاستفهام	
Optatif	Impératif	Silence	Indicatif	Interrogatif	واقعي
أمثلة	قول مأثور	لغز	سيرة مأثورة	أحدثة	واقعي
Fable	Locution	Devinette	Geste	Cas	Réaliste
حكاية	خرافة بطولية	حكمة	مأثر	أسطورة	مثالي
Conte	Légende	Trait d'esprit	Mémorable	Mythe	Idéal

جدول رقم (01) يمثل أنماط الخطاب الشعبي وأفعال القول التي

يحدد الناقد الفعل الكلامي بالنسبة لكل شكل تعبري والموسوم إما بالواقعية أو المثالية، ويتم إدراجه في الأقسام المتفرعة عن الأفعال المتضمنة في القول، وهي الاستفهام والإثبات والصمت والأمر والطلب²¹. يتبين مما سبق أن الحكايات والأمثال الشعبية بمختلف أشكالها التعبيرية تتضمن باعتبارها ملفوظات مجموعة من الأفعال الكلامية وهي بذلك ليست مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأحداث، بل تهدف إلى إقناع المخاطب أو التأثير على موقفه من خلال القوة الإنجازية لتلك الأفعال الكلامية المتضمنة عبر تغيير وضع المتلقي، أو تغيير نظام معتقداته.

1.1.3 أداء الأمثال:

تتحلى قدرة الأمثال الشعبية على التواصل والتبليغ وفق المنظور التداولي -حسب بورايو- من خلال أداء الأمثال الشعبية الذي يصاحبه غالبا تغير في النغمة الصوتية؛ والتي يمكن ردها إلى السلطة المفوضة من طرف الجماعة لمن يستعمل الأمثال التي يكرس المجتمع وجودها. ومن جهة أخرى كونها لا تقتصر على البعد اللغوي

فحسب، بل في البعد الاجتماعي والنفسي أيضاً؛ لأن إغفالهما يفشل عملية التواصل، فالتداولية تركز على أهمية السياق في قيمة المثل الشعبي؛ لأن "قدرة العبارات على التبليغ لا يمكن أن توجد في الكلمات ذاتها التي لا تعمل إلا على الإشارة إلى تلك القدرة أو تمثيلها على الأصح... وهكذا فليست سلطة الكلام إلا سلطة موكلة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة (المجتمع أو الجماعة المعنية)، والذي لا تكون كلماته (أي فحوى خطابه وطريقة تكلمه في ذات الوقت) على أكثر تقدير، إلا شهادة من بين شهادات أخرى، على ضمان التفويض الذي وكل للمتكلم".²²

يذهب "بورايو" إذن إلى أن "أداء المثل لا يعني فقط تأكيداً لمعنى، بل يعني أيضاً نوعاً من الخطاب الخصوصي الذي له فعله الإجمالي، يصبح على المتلقي أن يدرك خصوصاً أن (المتلفظ) لا يتحدث باسمه، لكنه باسم حكمة الشعوب [...]. وما أن يتعرف المتلقي على النوع الذي ينتسب له النص، يكون قادراً على تأويله، والا فإنه سوف يحدث شلل حقيقي".²³

كما يشير "بورايو" إلى أن الأمثال "إذا ما تم حصرها في بيئة معينة وفي فترة تاريخية محددة تبدو كسلسلة من العناصر الدالة التي تنتمي لنسق خصوصي، يتميز هذا النسق بالانغلاق النسبي لكي يحافظ على حدوده الشكلية ويكشف عن الأوضاع الحضارية والقيود الاجتماعية والقيم التي يؤمن بها الأفراد المستعملون للأمثال ومستهلكوها، وتبدو سلطته الرمزية وكأنها مطلقة، غير أن شيوع وانتشار أمثال دون أخرى في وسط محدد وفي تاريخ معين يدل دلالة واضحة على نسبية هذه الطاقة الرمزية وارتباطها بسياق تاريخي محدد وبهيمنة إيديولوجية يمكن تعيينها والكشف عنها".²⁴

وبناء على ذلك اقترح "بورايو" تصنيف الأمثال الشعبية حسب السلطة الموكلة لقائل المثل من طرف الجماعة المتلقية والقيمة التداولية للمثل ووظائفه في المحيط الذي استقاه منه جامعهم مستنبطاً الوظائف الآتية:

- الوظيفة التواصلية، الوظيفة الإقناعية أو الحجاجية، الوظيفة التنبيهية، الوظيفة الحوارية، الوظيفة الترفيهية، وهي وظائف لعبها المثل في المجتمع الجزائري ولا زال يلعبها حتى اليوم.²⁵ وتنم هذه الوظائف عن القوة الإنجازية الهائلة الكامنة في ثنايا الأمثال الشعبية، وكذا تنوع الوظائف التداولية في هذه الأمثال، وقد استطاع "بورايو" تسليط الضوء من خلال تجربته النقدية على جانب مهم جداً منها.

2.1.3 أداء القصص الشعبي:

يميز "بورايو" بين أداء القصص الشعبي في حلقات المدّاحين وبين أداء الحكايات الخرافية في البيوت؛ والتي تعدّ -حسبه- أفعالا كلامية لها وظائف تداولية معينة تؤدي في سياقات ملائمة، كما أنها تقوم على فعل كلامي إجمالي من خلال قدرتها على الانتقال بأذهان ومشاعر المتلقين من عالم الواقع إلى عالم الخيال عن طريق العبارات النمطية التي تفتح بها رواية هذه الحكايات مثل: (كان يا ما كان في قديم الزمان...)، ثم ردهم في النهاية إلى عالم الواقع عن طريق عبارات نمطية أخرى تختتم بها مثل: (خرّفتنا دخلت الغابة، والعام الجاي جينا الصابة، أو يغفر لنا

رَبِّي...، هذا ما سمعنا هذا ما قلنا...) ²⁶. وبهذا يتبين أن الحكايات الشعبية تكتسب معناها من خلال الوظائف التداولية وما يرتبط باللغة المتداولة بين الراوي والمتلقي في سياقات معينة (نفسية، واجتماعية، ولغوية) وما تحمله تفاصيل الحكاية من المعنى الكامن في ثنايا فصولها.

3.1.3 تداولية لغة القصة:

إن الوظيفة الأساسية للغة القصص الشعبي حسب "بورايو" ليست إيصال المعلومات فحسب بل قدرتها على تحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية، فحينما يقول راوي الحكاية: "كان يا ما كان في قديم الزمان" يكون قد أنجز فعلا اجتماعيا مضمونه هو ابتداء الحكاية. كما أن ما تتضمنه القصة الشعبية من قضايا لغوية واجتماعية، وما تحتويه من مفاهيم تداولية تجعل من النشاط اللغوي داخل الحكاية أداة لتوجيه السلوك يسمح بالولوج إلى المضمون، ومعرفة كثير من القضايا من خلال السياق الذي رويت فيه، والطقوس المصاحبة لرواية القصص؛ باعتبارها ممارسة اجتماعية يمثل الراوي ذلك الشخص الذي فوضته الجماعة التي ينتمي إليها ليتكلم بلسانها ووفق منطقها، ويتم هذا وفق شروط مقام تلقي الحكاية (الانصات، الانتباه، المشاركة الوجدانية، ردود الفعل المتناسقة بين الباث والمتلقي) ²⁷.

ويحصر "بورايو" الوظائف التداولية التي تعتمد عليها الحكايات الشعبية في أربع وظائف أساسية ²⁸:

الأمر: ويتراوح عادة بين أقصى درجة الشدة مثل التحريم في مستهل كثير من الحكايات. الإخبار: ويأخذ أشكالا متنوعة، ويقوم بدور الوصل بين عناصر الحكاية. التعبير والنداء والإخبار: وهي وظائف مجتمعة في الوقت نفسه تؤديها عبارات تكشف عن الموقف النفسي للباث، وموجهة لمتلقي ينتظر منه رد فعل معين.

الإنجاز: ونقصد به المفعول السحري للكلام، فالنطق بعبارات معينة تنجر عنه أحداث توجه السلوكات التي يتحدد على أساسها مسار الحكاية ومصير الشخصية الرئيسية.

إنّ ما يميز الممارسة التداولية لـ "بورايو" أن هذه الوظائف اللغوية قد استنبطها الناقد من خلال دراسته لعدد كبير من الحكايات والقصص الشعبية المروية في المجتمع الجزائري؛ مما يجعلها ذات قيمة علمية، وفي ضوء البحث التداولي الحديث فمن الممكن إدراج تلك الوظائف - كما صرح الناقد نفسه - في الإخباريات وهي الإخبار والتعبير والإنجاز، والإنشائيات وهي الأوامر والنداءات.

2.3 من قضايا لسانيات النص في التجربة النقدية لـ "بورايو":

أشرنا سابقا أن "بورايو" بنى منهجيته في تحليل النصوص الأدبية من صميم الإطار المرجعي والمعرفي العام؛ الذي لا يتعد في مضمونه عما تقترحه البنيوية والسيمائية من أطر، وما تفرضه من شروط، غير أن ما يميزه أمران:

- الأول: احترامه لخصوصية النص المدروس، والبعد عن التطبيق "الميكانيكي" الحرفي لما تملّيه المناهج النقدية الغربية؛ مما لا يتناسب مع مرجعيات وبيئة النص المدروس.

- الثاني: الإنصات لما يقوله النص، والانطلاق منه باعتباره بنية وكيان منظم ومكتمل، فالنص عالم خاص، له أنظمتها الخاصة به التي ينطلق منها الناقد، سعياً إلى مساءلته واستنطاقه بالتحليل والتفكيك لسر بنية هذا النظام، من خلال التركيز على النص بوصفه بنية لغوية مغلقة نظامها الداخلي هو المرجعية الوحيدة بالنسبة للناقد.

ولا شك أنّ هذا من صميم الممارسة النصية التي تقوم عليها مقولات لسانيات النصّ التي تؤسّس للوحدة النصية، وضرورة النظر إلى النص ومن ثمّ قراءته وتحليله باعتباره بنية واحدة مكتملة ومتماسكة لها عالمها الخاص، وسلطانها النافذة. وفي هذا الإطار يُروى عن "بورايو" قوله: "لا طاعة لمنهج في معصية النص"²⁹. وهي عبارة صريحة في اعترافه بأولية الممارسة النصية وأهميتها.

الأمر الثاني الذي ينبغي الإشارة إليه في إثبات الممارسة النصية عند الناقد "بورايو" هو بحثه في العلاقات النصية أو التي تحكم النص؛ سواء ما يسميه بالعلاقات الحاضرة في النص، والتي تستهدفها القراءة الشكلانية المحايثة، من خلال تقسيم النص المدروس إلى مقاطع أو أجزاء أو بنى صغرى؛ يحللها في إطار آليات المنهج الشكلي، ثم سرعان ما يعيد صياغتها في قالبها الكلي مؤكداً على الوحدة العضوية (النصية) للقصة (النص المدروس). أو العلاقات الكامنة والمستنتجة التي تستهدفها الدراسة الدلالية من خلال معالجة مضامين النصوص الأدبية المدروسة، عن طريق تطبيق آليات الشرح والفهم والتفسير، وهي آليات تتركز على البنى الداخلية للنص، وفي هذا الشأن يسعى "بورايو" إلى ربط النص بالسياق الثقافي والاجتماعي، من خلال استقراء الأبعاد الاجتماعية للنص، ووضعه في بنية أشمل هي المجتمع، حيث يقول: "بعد أن أعطينا للبناء الداخلي للنص باعتباره بنية دالة حقّه في التحليل وكشفنا عن وحدته، وبالتالي اجتزنا مرحلة فهمه، يحقّ لنا أن ننتقل الآن إلى جانب آخر من الدراسة يتمثل في مرحلة شرح النص عن طريق بيان علاقة بنيته بالبناء الاجتماعي"³⁰.

ويرجع الناقد تماسك نص القصة إلى تماسك البناء الاجتماعي للمجتمع البشري، وهو البناء الذي تولدت عنه، فالكشف "عن البنية التركيبية لنموذج من كل نمط قصصي، وبين علاقة هذه البنية بالبنية الأم التي تولدت عنها وهي البنية الاجتماعية"³¹.

يُميز "بورايو" بين نوعين من العلاقات التي تنظم وحدة النص (القصصي) وتماسكه³²:

- 1- العلاقات المنطقية، كعلاقة التضاد: خير/شر، معركة/انتصار..
- 2- الانتظام الزمني أو العلاقات الزمنية المتمثلة في: التابع أو التسلسل، الحصر والتضمين، الاقتران أو التوازي، التقاطع، التأجيل.

وفي المقابل يؤكد علماء لسانيات النص أيضاً على أهمية العلاقات الدلالية ودورها الضروري في تحقيق الانسجام والتماسك على مستوى البنية العميقة للنص. وبأن العلاقات الدلالية هي عبارة عن: روابط دلالية؛ تتمثل في الربط المعنوي أو العلاقات المنطقية بين الجمل؛ تعمل على تنظيم الأحداث داخل بنية النص وتربط بين

جملة، ليُصبح النص كلا موحدًا ومنسجمًا. فالعلاقات الدلالية عبارة عن علاقات تجمع أطراف النص وترتبط بين متوالياته كعلاقات العموم والخصوص والسبب والمسبب وغيرها من العلاقات التي لا يكاد يخلو منها نص، يحقق شرطي الإخبارية والشفافية من أجل تحقيق درجة معينة من التواصل، بل لا يخلو منها نص يعتمد الربط القوي بين أجزائه ومكوناته...³³.

إن توفر النص على علاقات تربط متوالياته يجعل منه نصًا منسجمًا ومتناسكًا، فيتحقق بذلك الانسجام. وعليه تقوم العلاقات الدلالية مجتمعة على تحقق الانسجام لمضمون الخطاب من خلال البحث في علاقات الترابط والتناغم، والكشف عن العلاقات التي تربط القارئ والنص والمنتج.³⁴

وهو الأمر الذي لم تخل منه دراسات "بورايو" النقدية خاصة عند تحليله ودراسته لحكايات: (غزوة الخندق) (ولد المتروكة) (حكاية المدينة المسحورة)، على وجه التمثيل لا الحصر.

4. خاتمة:

لقد تصدّى "بورايو" من خلال تجرّته النقدية ذات السمعة المميّزة عربيًا ومحليًا إلى دراسة عدد معتبر من الأمثال والحكايات والقصص الشعبية، والتي بناها على أسس ومرجعيات متنوعة أسهمت في بروز هذه التجربة وثنائها، حيث يمكن إجمالها في:

- مقولات النقد السياقي (المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي).
- مقولات النقد النسقي لا سيما:
- التحليل البنوي الوظائففي لـ "بروب".
- البنيوية الأنثروبولوجية لأـ "كلود ليفي شتراوس".
- البنيوية التكوينية لـ "غولدمان".
- السيميائية السردية لـ "غريغاس".

غير أن ما يميّز هذه التجربة اللمسة الخاصة التي أضفها الناقد على هذه المناهج من خلال تطرقه للقضايا التداولية والنصية على غرار:

- الاعتماد على البعد التداولي في تقسيم أشكال التعبير في القصص الشعبي.
- تصنيف الأمثال الشعبية واستنباط الوظائف التداولية منها: الوظيفة التواصلية، الوظيفة الإقناعية أو الحجاجية، الوظيفة التنبيهية، الوظيفة الحوارية، الوظيفة الحوارية.
- القوة الإنجازية للأمثال الشعبية والأفعال الكلامية المتضمنة فيها: الأمر، الإخبار، التعبير، الإنجاز...
- القضايا النصية: من خلال التأكيد على خصوصية النص والإنصات لما يقوله النص، وعدم التطبيق الميكانيكي لمقولات تلك المناهج دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية النصية. إضافة إلى بحث العلاقات النصية التي تحكم النص وتحقق تماسكه، وتربطه بالسياق الثقافي والاجتماعي.

5- الهوامش

- ¹ عبد العالي بو طيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، ع: 1 و 2، مجلد: 23، 1994، ص: 455.
- ² عبد الغني بارة: إشكاليات تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر: مقارنة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، [د ط]، 2005، ص: 13.
- ³ علي حمودين: الخلفية الفلسفية للمناهج النقدية الغربية، مجلة الأثر، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، ع: 7، 2008، ص: 183.
- ⁴ جابر عصفور: نظريات معاصرة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط 1، 1998، ص: 17.
- ⁵ يُنظر: أحمد يوسف: القراءة النسقية: سلطة البنية ووهم المحايثة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2003. و: عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- ⁶ عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 3.
- ⁷ حمزة بسو: المشروع النقدي عند عبد الحميد بورايو، مجلة اللغة العربية، ع: 44، 2019، مجلد: 21، ص: 369-370.
- ⁸ عبد الحميد بورايو: مقدمة كتاب: البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، دط، 2001، ص: 06.
- ⁹ عبد الحميد بورايو: البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري: دراسات حول خطاب المروييات الشفوية، الأداء والشكل والدلالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1998، ص: 89.
- ¹⁰ علي حمودين: الخلفية الفلسفية للمناهج النقدية الغربية، ص: 18.
- ¹¹ عبد الحميد بورايو: البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، ص: 89.
- ¹² عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية)، ص: 15.
- ¹³ يُنظر للاستزادة: المسعود قاسم: مرجعيات الخطاب النقدي عند "عبد الحميد بورايو"، مجلة رفوف، المجلد 7، العدد 1، مارس 2019، ص: 139-221.
- ¹⁴ عبد الحميد بورايو: الحكايات الخرافية للمغرب العربي: دراسة تحليلية في معنى المعنى لمجموعة من الحكايات، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ط 1، مجلد 1، 2007، ص: 17.
- ¹⁵ يُنظر: عبد الحميد بورايو: الحكايات الخرافية للمغرب العربي، ص: 123.
- ¹⁶ عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة: دراسة ميدانية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، دط، 2007، ص: 6.
- ¹⁷ عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص: 197.
- ¹⁸ نفسه، ص: 197.
- ¹⁹ خولة طالب الإبراهيمي: عن التداولية، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 16، ديسمبر 2003م، ص: 116.
- ²⁰ عبد الحميد بورايو: البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي: المثل والقصة الشعبية نموذجاً، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 17، ص: 105.
- ²¹ يُنظر: نفسه، ص: 106.
- ²² يُنظر: عبد الحميد بورايو: البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي: المثل والقصة الشعبية نموذجاً، ص: 106-108.
- ²³ نفسه، ص: 106.
- ²⁴ نفسه، ص: 108.
- ²⁵ نفسه، ص: 109-110.
- ²⁶ عبد الحميد بورايو: البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي، ص: 110-111.

- ²⁷ نفسه، ص: 112.
- ²⁸ نفسه، ص: 112-113.
- ²⁹ ينظر: يوسف وغليسي، في ظلال النصّوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، 2009، ط1، المحمدية، الجزائر، ص: 318.
- ³⁰ عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص: 196.
- ³¹ نفسه، ص 6.
- ³² ينظر: عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص: 183-184.
- ³³ ينظر: خطابي، محمد. لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991م، ط1، ص: 268.
- ³⁴ يُنظر: بوقرة، نعمان. مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2008م، ص: 34.

6. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- 1- أحمد يوسف: القراءة النسقية: سلطة البنية ووهم المحايثة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003.
- 2- بوقرة، نعمان. مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2008م.
- 3- جابر عصفور: نظريات معاصرة، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1، 1998.
- 4- خطابي، محمد. لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991م، ط1.
- 5- عبد الحميد بورايو: البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشّفوي الجزائري: دراسات حول خطاب المرويات الشّفوية، الأداء والشكل والدلالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر دط، 1998.
- 6- عبد الحميد بورايو: الحكايات الخرافية للمغرب العربي: دراسة تحليلية في معنى المعنى لمجموعة من الحكايات، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، ط1، مجلد1، 2007.
- 7- عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة: دراسة ميدانية، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، دط، 2007.
- 8- عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
- 9- عبد الغني بارة: إشكاليات تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر: مقارنة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، [د ط]، 2005.
- 10- عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- 11- يوسف وغليسي، في ظلال النصّوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، 2009، ط1، المحمدية، الجزائر.

• المقالات:

- 1- حمزة بسو: المشروع النقدي عند عبد الحميد بورايو، مجلة اللغة العربية، ع: 44، 2019، مجلد: 21.
- 2- خولة طالب الإبراهيمي. عن التداولية، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 16، ديسمبر 2003م.
- 3- عبد الحميد بورايو: البعد التداولي لأشكال التعبير الشعبي: المثل والقصة الشعبية نموذجاً، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 17.
- 4- عبد العالي بو طيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، ع: 1 و2، مجلد: 23، 1994.
- 5- علي حمودين: الخلفية الفلسفية للمناهج النقدية الغربية، مجلة الأثر، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، ع: 7، 2008.
- 6- المسعود قاسم: مرجعيات الخطاب النقدي عند "عبد الحميد بورايو"، مجلة رفوف، المجلد7، العدد 1، مارس 2019.